﴿۞وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠﴾ [يونس: 90]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إثـرَ الـدُّعـاءِ وإجـابـتِـهِ أخبر ببيانِ كيفيَّتِهِ

إنَّ الله تعالى لمّا ذكر دعاءَ موسى وهارونَ ﷺ وأنَّه قد استجاب دعوتَهما؛ أمرَ بني إسرائيل بالخروج من مصرَ في الوقت المعلوم، ويسَّرَ لهم أسبابَه[1]، فأتْبَعَ ذلك ببَيانِ إنعامِه بكيفيَّة إجابةِ الدُّعاء بأنْ أجازهم البحرَ، وأغرقَ عدوَّهم، فبَعدَ الأمرِ بالاستقامة أنعم عليهما بالإجابة.

وبيانُ كيف " حملتِ العزَّةُ فرعونَ على تقحُّم البحرِ على إثْرهم، فلمّا تحقَّق الهلاكُ؛ حملته ضرورةُ الحيلة على الاستعاذة، فلم ينفعْهُ ذلك لفواتِ وقتِ الاختيارِ"[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَجَٰوَزۡنَا﴾: أصْلُ (جوز): قَطْعُ الشَّيْءِ، أو عُبورٌ أو نفاذٌ من طَرَفٍ إلى طَرَفٍ، تقول: جُزْتُ المَوْضِعَ: سِرْتُ فيه، وأجَزْتُهُ: خَلَفْتُهُ وقَطَعْتُهُ، وأجَزْتُهُ: نَفَذْتُهُ[3]. والمجاوَزةُ: البُعْدُ عن المكان عَقِب المرور فيه، فإذا قُلتَ: جُزتُ به؛ فأصلُ معناهُ: أنَّكَ جُزتَهُ مُصاحبًا في الجواز به، يُقالُ: جُزتُ به الطَّريقَ؛ إذا سَهَّلتَ له ذلك، وإنْ لم تَسِرْ معه، فهو بمعنى أجزته، كما قالوا: ذهبتَ به بمعْنى: أذهبْتَه، فالمقصود من قوله: ﴿وَجَٰوَزۡنَا﴾: أقْطَعْنا. أي: جعلناهُم قاطعينَ البحرَ، بمعنى: قدَّرنا لهم جَوازه، ويَسَّرناه لهم[4].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/295.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/114.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (جوز).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/80، و11/274.

2) ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ﴾: أصْلُ تَبِعَ: التُّلُوُّ والقَفْوُ، يُقالُ: تَبِعتُ فُلانًا؛ إذا تَلوتَهُ، واتَّبَعْتَهُ، وأتْبَعْتُهُ؛ إذا لَحِقْتَهُ[1] كأنَّما لَحِق أو التصق به، وتَطَلَّبه مُتَّبعًا له[2]. وتَبِعتُ الرَّجُلَ؛ إذا مشيتُ مَعَه، واتَّبعْتُه؛ إذا مشيتَ خَلفَه لتلحقه[3]. ويُقال: أتْبَعْتَ القَوم؛ إذا كانوا قد سبقوك، فلحِقتهم. قالَ: واتَّبعتَهم؛ إذا مرّوا بكَ، فمضيتَ مَعَهم، وتبِعتهم تَبَعًا مثله[4]، وأتبع فلانٌ فلانًا؛ إذا تبعه يُريد بِهِ شرًّا، كما أتبع فِرْعَونُ موسَى عليه السلام . وأمّا التَّتبُّع فأنْ يتتبَّع في مُهْلة شَيئًا بعد شَيْءٍ[5]. والمرادُ بـ ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ﴾ في الآية: لَحِقَهُمْ؛ لطَلَب البَغي والعُدوانِ[6].

3) ﴿بَغۡيًا﴾: البَغْيُ مَصْدَرُ (بَغَى)، وهو الظُّلْمُ والاعتِداءُ، يُقال: بَغى، يَبْغي، بَغْيًا، فهو باغٍ، أي: ظالِمٌ مُعتدٍ. والبغيُ الاعتِداءُ على حقِّ الآخرِ بِسَلْبِ أموالِهم أو بأذاهُم، والكِبْرُ على النّاسِ مِنَ البَغي، وأصْلُ البَغْيِ: الفَسادُ، كَقَوْلِهم: بَغَى الجُرْحُ، أي: فَسَدَ. والبُغاةُ: الَّذين يُفْسِدونَ في الأرْضِ[7]. والمقصودُ بالبغي في الآية: الظُّلْمُ والتَّعدّي بالباطل[8].

4) ﴿وَعَدۡوًا﴾: أصْلُ (العَدْو) مِن التَّعَدّي، وهو: مُجاوَزَةُ الحَدِّ، يُقالُ: قَدْ عَدا فُلانٌ عَدْوًا وعُدوًّا، أي: ظَلَمَ ظُلْمًا جاوَزَ فيهِ القَدْرَ[9]، ومنه تَعَدّى النَّهْرَ، أيْ: تَجاوَزَهُ، وعدا عليهِ بِالسَّيْفِ يعدو عَدْوًا[10]. فالعَدْوُ مَصْدَرٌ بِمَعْنى: الظُّلم والتَّجاوز، ولَيْسَ مِنَ الاعْتِداءِ الَّذي مثالُه قولُه تعالى: ﴿جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيّٖ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ﴾ [الفرقان: 31]. والمقصود بـ العَدْوِ في الآية: تَجاوُزُ الحَدِّ في الظُّلْمِ[11].

5) ﴿أَدۡرَكَهُ﴾: أصْلُ (دَرَكَ) من الدَّرَك، وهو التَّبِعةُ، يُسَكَّنُ، ويُحَرَّكُ[12]، وهو لُحوقُ الشَّيءِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (تبع).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (تبع).
(3) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (تبع).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (تبع).
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (تبع).
(6) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 199، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/127.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بغي).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/274.
(9) الأزهريّ، جمهرة اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (عدو).
(10) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (عدو).
(11) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/274.
(12) ابن منظور، لسان العرب: (درك).

بالشَّيءِ ووُصولُهُ إلَيْهِ[1]، والدِّراك: إتباع الشَّيء بعضَهُ على بعض في كلِّ شيءٍ[2]، يُقال: أدركتُ الرَّجلَ إدراكًا؛ إذا لحقتُه، فَهوَ مُدْرَك[3]، وأدْرَكَ الغُلامُ والجاريَةُ؛ إذا بَلَغا، وتَدارَكَ القَوْمُ: لَحِقَ آخِرُهُمْ أوَّلَهُمْ[4]، ومِمّا سَبق نخلُص إلى أنَّ معنى الإدراكِ: هو اللَّحاقُ وانتهاءُ السَّير، وهذا هو المقصودُ من قوله: ﴿أَدْرَكَهُ﴾ في الآية[5].

6) ﴿ٱلْمُسْلِمِينَ﴾: أصلُ الإسلامِ: الانْقيادُ؛ لأنَّهُ يَسْلَمُ مِنَ الإباءِ والامتِناعِ[6]. والإسْلامُ: الاستِسلامُ لأمرِ الله، والانقيادُ لطاعَتِه، وهو دينُ الأنبياء جميعًا، يُقال: سَلَّمْنا لله رَبِّنا، أي: اسْتَسْلَمْنا له، وأسْلَمْنا، ويُقالُ: فُلانٌ مُسلِمٌ، وفيه قَولانِ: أحدهما هو المُستَسلِمُ لأمر الله، والثّاني هو المُخْلِصُ لله العبادةَ، مِنْ قَولهم: سَلَّمَ الشَّيءَ لِفُلانٍ، أي: خَلَّصَهُ، وسَلِمَ لَهُ الشَّيءُ، أي: خَلُصَ لَهُ[7]. والمقصودُ بالمسلمين في الآية: المنقادونَ لدينِ الله[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ حمايةِ اللهِ لأوليائِه، وإهلاك فرعونَ الَّذي لم تنفعه وقايةٌ ولا تُقْيَةٌ

يقولُ الله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ عندما خرجوا من مِصرَ مع نبيِّهم موسى ﷺ، فتَبِعَ بني إسرائيلَ فرعونُ وجنودُه؛ استعلاءً عليهم واعتداءً، حتى إذا أحاط الغَرَقُ بفِرعونَ؛ قال عند الموتِ: أقررْتُ بأنَّه لا إلهَ إلّا الله الذي آمَنَ به قومُ موسى، وأنا من الموحِّدينَ لله، المُستَسلِمينَ المُنقادينَ له بالطّاعةِ[9].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (درك).
(2) الخليل، العين: (درك).
(3) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (درك).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (درك)، والمناويّ، التّوقيف على مهمات التّعاريف، ص: 159.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/275.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سلم).
(7) ابن عباد، المحيط في اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سلم).
(8) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 372.
(9) ابن جرير، جامع البيان: 12/274، والواحديّ، التفسير البسيط: 11/302، 303، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 372.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الوصلِ بالعطفِ في السّياق:

أحداثُ القصَّةِ تتوالى لاستكمالِ المشاهدِ واتِّساقِها

الجملةُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ معطوفةٌ على الجملة في قولِه تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا﴾، "عطفَ الغرضَ على التَّمهيد، أي: أمَرْناهُما باتِّخاذِ تلك البيوتِ تهيئةً للسَّفر، ومجاوزةِ البحر"[1]، فَهُما خبرانِ في سياق قصَّةٍ واحدةٍ.

إيثارُ التَّعبيرِ بالفعل (جاوز)، دونَ (جاز):

تصويرُ عبورِ بني إسرائيل، بما تضمَّنَ من معجزاتٍ باهرةٍ

في قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بـ ﴿وَجَٰوَزۡنَا﴾، دون (وجُزْنا)، وإن كانا بمعنًى واحدٍ، فالفعلُ (جاوَزَ) بمعنى: جازَ، من باب فاعَلَ بمعنى فَعَلَ[2]، وأصل (فَعَل) إنَّما يقتضي تكليفَ الفعلِ[3]، فساقَهُ على طريق المفاعلة تعظيمًا له[4]. بزيادة الألف، وذلك مبالغة لِما كان من معجزة فَرْقِ البَحْر، بارتفاع بعضِ أراضيه لعبورِهم، وانخسافِ مائِهِ، وغَرَقِ فرْعونَ وقومِه فيه[5].

والمعنى: "جاوزنا، وجعلنا بني إسرائيل قاطعينَ البحرَ بحيث تركوا البحرَ في خلفِهم"[6]، فلمّا كانت مجاوزةُ أمَّةٍ كاملةٍ البحرَ ليس من يسيرِ الأعمالِ؛ كان التَّعبيرُ عنها بالفعل الأكثرِ حروفًا أدْعى لمقتضى الحالِ.

توجيهُ تعظيمِ الضَّمير للعظيم القدير في قوله: ﴿وَجَٰوَزۡنَا﴾:

معجزة الإغراق العظيم، تقتضي معجزة إنقاذٍ عظيم

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ عظَّم النَّظمُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/274، وينظر: البقاعيّ، نظمُ الدّرر: 9/183.
(2) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 5/442.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/247، وابن عادل، اللباب: 9/292.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/103.
(5) الجلالان، المفصّل، ص:594.
(6) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/553.

الكريم المجاوزةَ المخبَر عنها بإسناد الفعلِ إلى ضمير التَّعظيم، "أي: فعلنا بعظمتنا في إجازتهم فعلَ المناظِر للآخر المباري له"[1]، والتَّعظيمُ مناسبٌ للسّياق؛ إذ إنَّ فَرْقَ البحر والنَّفاذَ منه أمرٌ بالغُ العِظَم، فكان التَّعبيرُ عنه بضمير العظمةِ أوفقَ للبلاغة، وأدلَّ على الواقع على القدر والتَّمكين.

بلاغةُ الالتفاتِ من الغيبةِ إلى التَّكلُّم:

عظمةُ المجاوزةِ تقضي بتعظيم المتكلِّم، إبرازًا لإعجازه الأفخم

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ عبَّر بصيغة المتكلِّم التفاتًا من الغَيبةِ في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا﴾؛ وذلك لِما "في هذه المجاوزةِ ومقدِّماتِها ولواحقِها من مظاهرِ العظمة ونفوذِ الأوامر ومضاء الأحكام"[2]، وإنَّما يظهرُ ذلك بالتَّعبير بضميرِ العظمةِ؛ فاقتضى الالتفاتَ من الغَيبةِ إلى التَّكلُّم.

دلالةُ الباءِ على التَّعدية في قوله: ﴿بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾:

لا يُجتازُ البحرُ بالأنفُسِ الضَّعيفة، بَلْ بقوَّةِ اللهِ اللَّطيفة

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ أدخل النَّظمُ الجليل الباءَ على بني إسرائيل، وهي هنا "للتَّعدية، أي: جعلناهم مجاوزين البحرَ بأن جعلناه يَبَسًا، وحفِظناهم حتى بلغوا الشَّطَّ"[3]، وذلك يُشعِر أنَّ المجاوزةَ لم تكن بفعلِهم أو مَحْضِ إرادتِهم، بل هناك قوَّةٌ دافعةٌ بأمر الله تعالى جازتْ بهم؛ فلذا لم يقلْ: (جازوا البحر).

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ في عُبورٍ ليس له مثيل:

المجاوزةُ بأمَّةٍ كاملةٍ، أبلغُ في الإعجازِ، وأغرب في الإنجاز

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن قوم موسى عليه السلام بـ (بني إسرائيل) تصريحًا بأنَّ الَّذين جازوا البحرَ كلُّ قبائل بني إسرائيل، وفي ذلك تفخيمٌ للمجاوزة وتعظيمٌ لها؛ إذ إنَّ حركةَ جماعةٍ كبيرةٍ وعبورَهم ذلك

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/183.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/183.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/172.

الممرَّ الحادِثَ؛ أدلُّ على عِظَمِ المعجزةِ، وليست مجاوزةَ النَّفر القليلِ ذلك البحرَ، كمجاوزةِ أُمَّةٍ كاملةٍ، فعبَّر بـ ﴿بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ إشارةً إلى ذلك.

نوعُ (أل) في ﴿ٱلۡبَحۡرَ﴾ دالَّة على العهد:

المعهودُ في الذِّهن، معروفٌ مرادٌ بعينه، وعرف بالوحي والتَّأريخ

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ عرَّف البحرَ بالألف واللّام الدّالَّةِ على العهد؛ لأنَّ المرادَ بحرٌ بعينه، والعهدُ هنا ذهنيٌّ؛ إذ من المعروفِ أنَّ بني إسرائيل عبروا البحرَ مع موسى، وإن لم يجرِ له ذكرٌ في سياق القصَّةِ هنا.

سرُّ إيثارِ (البَحْرِ) على (اليمّ) في هذا السّياق المحكم:

البحرُ يغلب في الإنعام، واليمُّ في جزاء الطُّغيان

في قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالبحرِ دون اليمِّ؛ لأنَّ البحرَ أنسبُ في سياق الإنعام، والبحرُ واليمُّ بينهما فرقٌ: فالبحرُ غالبُ استعمالِه مع النِّعَم، أمّا اليمُّ؛ فمع النِّقم، كما أنَّ اليمَّ يُطْلَقُ على جزءٍ من البحر "اليَمُّ: البَحْرُ، وقيل: لُجَّةُ البَحر"[1]، واستُعمل في القرآن غالبًا في العقابِ أو الشِّدَّةِ، كقوله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾، وقولِه جلَّ شأنه: ﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾، وقولِه: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ﴾.

دلالةُ الفاءِ على المجاوزةِ في الفعل: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ﴾:

عدمُ الإمهالِ والمسارعة، يفيدُ تلاحق الأحداث وتداخلها

عطف النَّظمُ الجليل الإتباعَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ على المجاوزةِ بالفاء للدَّلالةِ على أنَّ إتباعَ فرعونَ بني إسرائيل كان على الفور من مجاوزتِهم، وأنَّه لم يمهلْهم فسحةً من الزَّمان، كما لم يقفْ وقفةَ المتدبِّر إزاءَ ما رأى من عظيم الآياتِ بفَرْق البحرِ، بلْ بادرَ بمتابعتِهم تبعًا لتعنُّته وهواه، فأغفل وازعَ الاتِّعاظ.

(1) الفيروزابادي، البصائر: (يمّ).

دلالةُ التَّعبيرِ عن فعل الإتباعِ بصيغة الماضي:

الإتـــبـــاع بالإسراع؛ يلمح إلى قد التَّحقُّقِ والانقضاء

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ عبَّر النَّظمُ الكريم عن إتباعِ فرعونَ موسى ﷺ وبني إسرائيل بالفعل الماضي للدَّلالة على تحقيق خروجِه ومتابعتِه لهم، ولم يكن فعلًا يحوج إلى بيان تجدُّدِه لسرعةِ إنفاذِه.

إيثارُ الفعل (أتبع) دون (تَبِعَ):

قرينة المتابعة دليلُ الحرصِ على استئصال شأفتهم

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ آثر النَّظمُ الجليل التَّعبيرَ بالفعل (أتبعَ) دون (تَبِع)؛ للدَّلالة على اجتهاده في ذلك "أي: حَملوا نفوسَهم على تبعِهم"[1]، فكان فعلُهم ذلك متضمِّنًا اجتهادَهم وتكليفَ أنفسِهم بالمتابعة؛ إظهارًا لحرص فرعونَ على الفتْكِ بمخالفيه.

وجهُ إظهارِ الفاعل ﴿فِرۡعَوۡنُ﴾ في السّياق:

خـروجُ الجَيشِ بـرمَّـتـه مع فـرعـونَ، دليلُ شدَّةِ الغيظِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيًا وَعَدۡوًا﴾ آثرَ إظهارَ الفاعل، مع إمكان إضماره؛ تصريحًا بكونِه ضمنَ الجيشِ الذي خرج إثْرَ بني إسرائيل، وكونِه هو الآمرُ والمنفِّذ، وهذا يدلُّ على شدَّة تعنُّتِه، وأنَّه كان في النِّهاية من الاغتياظِ بهم مصداقًا لقوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٥٣ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ۝٥٤ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ۝٥٦﴾

[الشعراء: 53 - 56].

فرعونُ أهلٌ للمذمَّة والإذلال في كلِّ حال:

من أذلَّـه الله؛ فما له من مُكرِمٍ سواه

فضلًا عن أنَّ إظهارَ الفاعل في مواطنِ الخيبة والخسران فيه مزيدُ ذمٍّ له، وتشنيعٌ عليه، وإذلالٌ له، ولذلك أرْدَفَهُ ببيان علَّةِ الإتْباعِ (البغي، والعدو)، أو حالهم باغين متعدّين، وفرعونُ أهلٌ لكلِّ ذمٍّ، ومنقصةٍ، وصَغارٍ، ومَثْلَبَةٍ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/184.

ما دلالةُ عطفِ الجنودِ على فرعونَ في الآية:

جـنـود فـرعـون هـم المختصّون بـه، المنصرفون عن شأنِ غيرِه

في قوله تعالى: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيًا وَعَدۡوًاۖ﴾، عطف الجنودَ على فرعونَ، للدَّلالة على أنَّهم مشاركون له بإتّباعهم بني إسرائيل، وأنَّهم قاموا بذلك طاعةً واتِّباعًا لفرعون، وأفاد أنَّ خروجَ فرعونَ كان على قدر غيظِه وحنَقِه من بني إسرائيلَ، فخرج بإثْرهم، ومعه جيشُه، وقد أضاف الجنودَ إلى ضمير فرعونَ للدَّلالة على أنَّهم مختصّون به، لا ولاءَ لهم لغيره، فلم يكونوا جنودًا للدِّفاع عن النّاس، بل عن فرعونَ، فأوردَهم ذلك المهالكَ.

بيانُ المتشابِهِ بين: ﴿وَجُنُودُهُۥ﴾ و﴿بِجُنُودِهِۦ﴾:

عطْفُ الجنودِ في السّياق إظهارٌ لمشاركتِهم في الحدث

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ تشابهٌ مع قوله تعالى: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ [طه: 78]، وذلك أنَّ الآيةَ في سورة يونسَ يسبقُها قولُه عزَّ ذكرُه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [يونس: 88]، فلمّا كان السّياقُ متعلِّقًا بالمشاركة في الحكم والفعلِ؛ ناسَبَهُ عطْفُ الجنودِ على فرعونَ، أمّا الآيةُ في سورة طه؛ فيسبقُها قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي﴾ [طه: 77]، فلمّا كان موسى ﷺ قدْ سارَ بالعباد؛ ناسبَه أن يتْبعَه فرعونُ بالجنود.

سرُّ تنكيرِ لفظَي ﴿بَغۡيًا وَعَدۡوًاۖ﴾:

مـن الشَّـنـاعـةِ الـعـظـمـى الاعتداءُ والبغيُ بلا مسوِّغٍ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيًا وَعَدۡوًاۖ﴾ جاء لفظا (العدْو، والبغْي) منكَّرَيْنِ للدَّلالةِ على تهويلِ الاعتداءِ والبغْي، وذلك أنَّهم لم ينقصوه شيئًا، فلمّا لم تتوفَّر أسبابُ البغْي؛ كان إظهارُه يدلُّ على عِظَمِه في الشَّناعة، فانتفاءُ المسوِّغِ يدلُّ على شدَّةِ القبح.

البغْيُ والعدْو بين الحاليَّة، والمفعول لأجله:

يَصْلح اللَّفظان المنصوبان (البغي والعدْو) في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيًا وَعَدۡوًاۖ﴾ أن "يكونا مفعولين مِنْ

أجلهما، أي: لأجلِ البَغْي والعَدْوِ، وشروطُ النَّصب متوفِّرةٌ، ويجوزُ أن يكونا مصدريْنِ في موضعِ الحال أي: باغينَ معتدينَ"[1]، فالحالُ على تقدير: فأتْبعوهم باغينَ ومعتدينَ، أي: في تلك الحالة، فهيئةُ خروجِهم هي هيئةُ الباغي المعتدي؛ تصويرًا لشدَّتهم وغلظتِهم، وأمّا المفعولُ لأجله؛ فهو إخبارٌ عن مقصدِهم، وبيانٌ لنيَّة فرعونَ، "أكانَ من الممكنِ أن تكونَ نيَّةُ الفرعونِ أن يدعوَ موسى وقومَه إلى العودة إلى مصرَ ليستقرّوا فيها؟ لا، لم تكنْ هذه نيَّةُ الفرعونِ؛ لذلك قال الحقُّ سبحانه عن هذا الإتْباعِ: ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ [يونس: 90]، أي: إنَّه إتْباعٌ رغبةً في الانتقامِ والإذلالِ والعُدوانِ"[2]. وهذا يدلُّ على أنَّهم كانوا يُقِرّون في سريرة أَنفسِهم أنَّهم خرجوا للظُّلم والاعتداءِ، وألّا مسوِّغَ مشروعًا لخروجِهم، وكلا الوجهينِ مُحْتمَلانِ، وهذا من سرِّ لُغةِ الإعجازِ.

خـرج فـرعـون وجـنـوده، بلا مسوِّغ شرعيٍّ، بهيئة الظّالم المعتدي

دلالةُ العطفِ بالواو في المعطوفَين: ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾:

في قوله تعالى: ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ عطف النَّظمُ العزيزُ لفظَ العدْوِ على البغْي، وهو مصدرٌ من الفعل (عدا) يدلُّ على تجاوزِ الحدَّ في الظُّلم، مسوقٌ لتأكيد البغي، وإنَّما عُطِف لِما فيه من زيادةِ المعنى في الظُّلم[3]، والجمعُ بينهما يدلُّ على أنَّ سوءَ غايته لا يقعُ بوصفٍ واحدٍ من تلك الأوصاف، وإن كان الوصفُ الواحدُ منهما جديرًا بإظهار السّوءِ.

عطفُ المتقارِب في الدَّلالة يسفرُ عـن دلالـتـه بالمتعاطفَين معًا

وجهُ إزْدافِ البَغْي بالعدْوِ في سياق الآية:

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ أتْبَعَ النَّظمُ الكريم ذكرَ البغْي بذكر العدْو تأكيدًا لظلمِه واعتدائِه، فـ "البغْي الإفراطُ في الظُّلم، والعدْو مجاوزةُ الحدِّ"[4]. وشتّانَ بين

الـجـمـع بين البغْي والعدْو، دليلُ الطُّغيان والجبروت

(1) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 6/263.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 10/6180.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/274.
(4) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/607.

المعنيَيْنِ، فالبغْي ظلمٌ، ويتحقَّقُ بالمَيْل عن الحقِّ ووضعِ الشَّيء في غير مكانِه، أمّا الاعتداءُ؛ فهو اختراقُ الحدِّ وتجاوزُه، فيدلُّ على انتهاك الحدودِ التي لا ينبغي تجاوزُها بمانع الدّينِ والقانون والأخلاق، وعليه فإنَّ الجمعَ بينهما تأكيدٌ على غَلْواء فرعونَ في طغيانِه وظلمِه واعتدائِه.

دلالةُ (حتَّى) على الإيغال في العتوّ:

استفراغُ الوُسْعِ بالظُّلم والكفر، حـتّـى بـلـوغِ الغرق الأكبر

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ﴾ عبَّر بـ (حتّى) للدَّلالة على مُضيِّ فرعونَ في عتوِّه حتّى الآخِر، و(حتّى) "ابتدائيَّةٌ لوقوع إذا الفجائيةِ بعدها، وهي غايةٌ للإتْباع، أي: استمرَّ إتْباعُه إيّاهُم إلى وقت إدراكِ الغرقِ إيّاه، كلٌّ ذلك لا يفتأُ يَجِدُّ في إدراكهم إلى أنْ أنْجى اللّه بني إسرائيل، فاخترقوا البحرَ، وردَّ اللّه غمرةَ الماءِ على فرعونَ وجنودِه، فغرقوا، وهلك فرعونُ غريقًا"[1].

إيثارُ التّعبيرِ بظرفِ الزّمان (إذا) في السّياق:

أصـاب فـرعـونَ الغرورُ عن تمثُّل كـفـرِهِ، فبحث عن حتفه بظلفه

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بظرف الزَّمان (إذا) لِما فيه من دلالةٍ على المفاجأة عند وقوعِه بعد (حتّى)، فـ "حتّى: ابتدائيَّةٌ لوقوع إذا الفجائيةِ بعدها"[2]، وذلك للدَّلالة على مُضيِّه في عُتوِّه إلى أقصى ما يمكنه، وعدم ارعِوائِه برؤية أماراتِ الغرقِ، فإذا به يُفاجأُ بالغرق.

التّعبيرُ عن فعل الإدراكِ بالماضي ﴿أَدۡرَكَهُ﴾:

الـغـرقُ حـكـمٌ نـاجـزٌ محـقَّـقٌ، بـإعـجـاز لا يحصره منطق

في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن الإدراك بالفعل الماضي تأكيدًا لتحقُّقِ الغرق، ولو عبَّر بالفعل المضارع؛ لأفاد تصويرَ ذلك الحدث، ولم يُرِدِ السّياق التَّصويرَ هنا، بل أراد بيانَ أنَّه إنَّما أعلن إيمانَه في وقت تحقُّق

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/275.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/275.

الغرق وتيقُّنِه من ذلك، فالسّياقُ في بيان زيفِ إيمان فرعونَ، وليس المرادُ الوعظَ والاعتبارَ بتصوير ذلك المشهدِ لمن يسمعُ القصَّة، والاعتبارُ قد حدث بإنْجاء البَدن.

نكتةُ العدول من الإغراقِ إلى إدراكِ الغرقِ له:

تـــدرُّجُ الـغـرقِ يدنو منه، وهو ماضٍ في طغيانِه غيرَ آبهٍ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ﴾ عدَل النَّظمُ الجليل من التَّعبير من الغرقِ المباشرِ، فلم يقلْ: (حتّى إذا غرق) إلى قوله: "﴿أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ﴾، والإدراكُ "اللَّحاقُ وانتهاءُ السَّير، وهو يُؤذِنُ بأنَّ الغرقَ دنا منه تدريجيًّا بهول البحر ومصارعتِه الموجَ، وهو يأملُ النَّجاةَ منه، وأنَّه لم يُظهِر الإيمانَ حتّى أيِسَ من النَّجاة، وأيقنَ بالموت، وذلك لتصلُّبِه في الكفر"[1]، وكذلك فلو عبَّر بالغرقِ المباشرِ؛ فإنَّه سيتناقضُ مع الإخبارِ بأنَّه قال ما قال؛ فكيف يقول الغريقُ ذلك؟ فدلَّ التَّعبيرُ على أنَّه قال ذلك عند مُشارفتِه الوشيكةِ على الغرق، فبلغ أقصى الغايةِ؛ إذ الإدراكُ هو بلوغُ أقصى الشَّيء، وأدْرَكَ الصَّبيُّ: بلغ غاية الصِّبا، وذلك حينَ البلوغِ[2].

سرُّ تخصيصِ الغرقِ بفرعونَ دون جنودِه:

قَـصَـصُ الـقـرآنِ ليست لاستقراءِ الأحداث والآثار، بـــل لـلـعـبرة والازدجار

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالضَّمير المفرَدِ دونَ الجمعِ، فلم يقلْ: (أدركهم) فخصَّ فرعونَ بذلك للإشعارِ "بأنَّ جنودَه، لم يقولوا: آمنّا، ولذا قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ﴾ مع أنَّ الغرقَ أدركهم جميعًا"[3]. ولأنَّ جنودَ فرعونَ غائبون من المشهد، ولا دورَ لهم غيرُ اتِّباعِ فرعون، فكأنَّه لا وجودَ لهم، وكذلك فإنَّ المرادَ من السّياق هو بيانُ جزاءِ طغيانِ الكفر، وكان ذلك متشخِّصًا في فرعون.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/275.
(2) الرّاغب، المفردات: (درك).
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/554.

توجيهُ تعريفِ الغرقِ في السّياق المحكم:

الـغـرقُ مشهدٌ مـعـروفٌ، لاسـتـجـلاب صـورةِ الغـريـقِ المهين

في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم المجيءَ بالغرق معرَّفًا بالألف واللّام إشارةً إلى أنَّه هو العذابُ الأليم الذي دعا به موسى ﷺ، فـ﴿ٱلۡغَرَقُ﴾ "الموتُ بالماء، كما سأل موسى في أنَّه لا يؤمنُ حتّى يرى العذابَ الأليم"[1]، كما أنَّ الغرقَ في البحر معهودٌ معروفٌ، وهو امتلاءُ الجوف بالماء بما يقطعُ النَّفَس، فعبَّر بذلك لاستجلاب تلك الصّورةِ وإسقاطِها على فرعونَ للإهانةِ والتَّقبيح.

بلاغةُ الإيجازِ بالحذف في السّياق الحكيم:

طوى القِصَّةَ في بلاغة التَّعبير، بغاية التَّشويق والتَّأثير

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ﴾ جاء تركيبُ الجملة في غايةِ الإيجاز، وقد بيَّن العلّامةُ ابنُ عاشور أنَّ هذه الجملةَ قد أوجزتْ ما يقتضي تفصيلَه أن يأتي في خمسِ جُمل: "جملةٌ: تفيد أنَّ فرعونَ حاول اللَّحاقَ ببني إسرائيلَ إلى أقصى أحوالِ الإمكانِ والطَّمعِ في اللَّحاق. وجملةٌ: تفيد أنَّه لم يلحقْهم، وهاتان مستفادتان من (حتّى)، وهاتان مِنَّةٌ على بني إسرائيل. وجملةٌ: تفيد أنَّه غمرَه الماءُ، فغرق، وهذه مستفادة من قوله: ﴿أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ﴾ وهي عقوبةٌ له وكرامةٌ لموسى ﷺ. وجملةٌ: تفيد أنَّه لم يسعْه إلّا الإيمانُ باللّه؛ لأنَّه قهرَتْه أدلَّةُ الإيمان، وهذه مستفادةٌ من ربط جملةِ إيمانه بالظَّرف في قوله: ﴿إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ﴾، وهذه مَنْقَبَةٌ للإيمان، وأنَّ الحقَّ يغلبُ الباطلَ في النِّهاية. وجملةٌ: تفيد أنَّه ما آمن حتى أيِسَ من النَّجاة لتصلُّبه في الكفر، ومع ذلك غَلبَهُ اللّه، وهذه موعظةٌ للكافرين وعزَّةٌ للّه تعالى"[2].

توجيهُ الفصلِ بفعلِ القولِ: ﴿قَالَ﴾:

شـدَّةُ الاتِّـصـال تكفي في الرَّبط بلا عاطفٍ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ﴾ جاءت الجملةُ بلا عطفٍ لكمال الاتِّصالِ بين الجملتين: جملةِ إدراكِ الغرقِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/184.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/275 - 276.

إيّاه، وجملةِ إعلانه الإيمانَ، فالفعل (قال) هو ما تنتهي إليهِ الغايةُ في حتّى.

إيثارُ فعلِ الإيمان ماضيًا ﴿ءَامَنتُ﴾:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ عبَّرَ عن إيمانِه "بصيغة الماضي الدّالَّةِ على وقوع مضمونِها باعتبار وضعِها"[1]، وفي ذلك دليلٌ على مبالغتِه في السَّعي إلى تحقُّق إيمانِه.

المبالغةُ في تحقيق الإيمانِ بالإخبار عنهُ ماضيًا منجزًا

سرُّ التَّعبير عن إيمانِ فرعونَ بالجملةِ الاسميَّة:

بيَّن النَّظمُ الجليل أنَّ فِرعَونَ عبَّر عن إيمانه بالجملةِ الاسميَّة دونَ المفردِ، فقال جلَّ شأنه: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، ولم يقلْ: (آمنتُ باللّه)؛ بل أتى "بالجملةِ الاسمية الدّالَّةِ على الدَّوامِ والثَّبات بدلًا وبيانًا له"[2]، أي: بدلًا من الفعل (آمنتُ)، كما أنَّه كان في وضعٍ مضطربٍ بحيث غاب عنه ما لا يغيبُ بالضَّرورة، وقد يدلُّ على أنَّه لم يُلقِ بالًا لمضمون أقوالِ موسى ﷺ حالَ إلقاء دعوتِه، ولم يكلِّفْ نفسَه بأن يعرف اسمَ الإله الذي دُعيَ إليه، "وفي لفظ فرعونَ مجهلةٌ وتعنُّت؛ لأنَّه لم يصرِّح باسم اللّه"[3].

التَّحيُّلُ في تأكيد الإيمانِ طمعًا في تحقيق النَّجاة بعد الفوات

تَوجيهُ قراءتَي فتحِ همزةِ (أنّ) وكسرِها وأثرُه في البيان:

في قوله تعالى: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ اختلف القرّاءُ في فتح الألفِ وكسرِها في: ﴿أَنَّهُۥ﴾ فقرأ ابنُ كثير، ونافعٌ، وعاصمٌ، وأبو عمرو، وابنُ عامر: ﴿أَنَّهُۥ﴾ بفتحِ الألف. وقرأ حمزةُ الكسائيُّ (إنّه) بكسرِ الألف. فمن قرأ: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ﴾ فلأنَّ هذا الفعلَ يصلُ بحرف الجرِ في نحو قولِه

الإيمانُ بالألوهيَّة، في عبارة تنمُّ عن جهلٍ بحقيقة المعبود

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/555.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/555.
(3) ابن جُزَيّ، التّسهيل: 1/362.

ﷺ: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾، فلمّا حذفَ الحرفَ؛ وصلَ الفعلُ إلى (أنّ)، فصار في موضع نصبٍ أو خفضٍ، ومن قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ﴾؛ حمَلَه على القولِ المُضمرِ، كأنَّه قال: آمنتُ؛ فقلتُ: إنَّه لا إله إلّا الله، وإضمارُ القول في هذا النَّحوِ كثيرٌ ولإضمار القولِ مزيَّةٌ هنا، فقولُك: إنَّه لا إله إلا الله في المعنى إيمانٌ، فإذا قلتَ: آمنتُ؛ فهو تصريحٌ بأنَّه قد ذكر ذلك[1].

دلالةُ ضمير الشَّأنِ في سياق الآية:

تأكيدُ الإيمان بكونِه حقيقةً، يلجأ إليها النّاس عند الإياس

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ التَّعبيرُ بضمير الشَّأنِ أبلغُ من التَّعبيرِ بسواه، فكأنَّ الحديثَ يساقُ مساقَ القضيَّةِ الكلِّيَّة والحقائقِ الثّابتة التي لا خلافَ فيها، فهو تعبيرٌ عن تصديقِه بأنَّ الشَّأنَ قائمٌ على توحيد الإلهِ الحقِّ، ولم يقلْ: (آمنتُ بالله)؛ لأنَّ هذا إخبارٌ بقضيَّة مفردةٍ خاصَّةٍ به، أمّا التَّعبيرُ بالشَّأن؛ فهو غيرُ متعلَّقٍ به، بل حقيقةٌ عامَّةٌ مطلقةٌ ثابتةٌ، والمرادُ تأكيدُ إيمانِه بأبلغ عبارة.

نكتةُ التَّوكيد بأنَّ وجملةِ الحصر في السّياق:

لا يكون الإنسان في حالة أصدق منه في ساعة الأزمة

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ عبَّر عن إيمانِه بالجملةِ الاسميَّةِ الدّالَّةِ على تأكيد مضمونِها، وبافتتاحِها بـ (أنَّ) وما في الحصر من دلالةٍ على تأكيد المعنى، وما في (لا) النّافيةِ للجنس من قوَّةٍ في النَّفي، وذلك للقطعِ بكون إيمانِه جاء على وجهِ الصِّدق؛ لأنَّه أتى به في ساعةِ الشِّدة وحيث أدركَه الغرق، وذلك مظنَّةُ التَّكذيبِ والطَّعنِ في صدقِ دعواه، فلذا كسا ألفاظَه أنواعًا من التَّوكيد دفعًا لتلك التُّهمة.

(1) أبو عليّ، الحجّة: 3/205 - 206.

دلالةُ (لا) النّافية للجنس في إقرار فرعون أنَّه لا إله سواه:

ادِّعـاء فرعون الألوهيَّة اضطرَّه عند التَّراجع إلى نفيها عن سوى اللهِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ جاء النَّفيُ بـ (لا) الدّالَّةِ على نفي الجنسِ لا نفي الوحدةِ تأكيدًا لنفي جنسِ الإلهيةِ عن سوى اللّه تعالى، وذلك لأنَّه قد سبق لفرعونَ أنَّه ادَّعى كونَه إلهًا، فكان الأنسبُ في إعلان إيمانه أن يتضمَّنَ نفيَ الإلهيَّةِ عن كلِّ أحد غيرِ اللّه تعالى، ليكونَ قد نفى تلك الصِّفةَ عن نفسه ساعةَ إعلان إيمانِه.

توجيهُ التَّعبيرِ بجملةِ الاستثناء في السّياق:

النَّفيُ والإثباتُ في الاستثناء، أبلـغُ في بيان الإيـمـانِ والتَّوحيد

في قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ آثر التَّعبيرَ عن التَّوحيد بصيغةِ الاستثناءِ، ولم يقل: (آمنت باللّه وحده)؛ لدلالةِ الاستثناءِ على الحصر، فيتضمَّنُ الإيمانَ بالتَّوحيد، مع الإعلان بنفي الإلهيَّةِ عن غيرِ اللّه تعالى، أمّا العبارةُ (آمنت باللّه وحده)؛ فهي تتضمَّن الإيمانَ بالتَّوحيد، ولكنَّها لا تتضمَّنُ حصرَ الإلهيَّةِ باللّه تعالى وحدَه، فقد يؤمنُ باللّه تعالى، ولكنَّه لا يَنفي أن يكونَ هناك إلهٌ آخرُ؛ فكان التَّعبيرُ بالاستثناء للدَّلالةِ على إثبات الإيمانِ ونفي الإلهيَّةِ عن سواه على سبيل التَّأكيدِ والقطع.

التَّعبيرُ بالاسم الموصولِ (الّذي) دون تصريحٍ بالإله:

صَـونُ أسـماءِ اللـه تـعـالى من أن تَـجـريَ على ألسنةِ الطُّغاةِ

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ جاء التَّعبيرُ عن إعلانِ إيمانه باللّه تعالى بالاسم الموصولِ دونَ التَّصريحِ باسم الجلالةِ، فلم يقلْ: (آمنت باللّه)؛ "للإشعار برجوعِه عن الاستعصاء وباتِّباعِه لمَن كان يستتْبعُهم طمعًا في القَبولِ والانتظام معهم في سلك النَّجاةِ"[1]. وفي ذلك براعةٌ في العُدول عن التَّصريح باسم اللّه تعالى؛ حيثُ صينَ اسمُ اللّه تعالى أن يجريَ على لسان الطّاغيةِ[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/173.

(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: 2/75.

توجيهُ الإطنابِ في الآية:

الإطنابُ يزيلُ الإلباسَ في إعلان الإيمان

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إطنابٌ، وذلك أنَّه قد ذكر المحصورَ، وهو الموصول وصلتُه، وكان يمكنُ التعبيرُ بالمفرد بإظهار لفظِ الجلالة، فأطْنبَ بذكر الجملةِ؛ لأنَّه أراد إزالةَ الاحتمال بكونِه آمنَ بشيء آخرَ، فأوقع تصديقَه على ما آمنت به بنو إسرائيل، فعيَّنه تعيينًا يُزيل به كلَّ الاحتمالات[1]، كما أنَّ فيه إشعارًا باستعطافِهم.

سرُّ الاختلافِ بين جملة فرعونَ، وجملةِ السَّحرة:

اختلاف العبارة نشأ عن اختلاف الموقف وملابسات الحال

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ عبَّرت الآيةُ عن إيمان فرعونَ بأسلوبٍ مختلفٍ عن إعلانِ السَّحرةِ إيمانَهم حيث قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: 121 - 122] فلم يقلْ فرعونُ كما قال السَّحرةُ، "بل عبَّر عنه تعالى بالموصولِ، وجعل صلتَه إيمانَ بني إسرائيل به تعالى للإشعار برجوعِه عن الاستعصاء، وباتِّباعِه لمَن كان يستَتْبعهم طمعًا في القَبول والانتظام معهم في سلك النَّجاة"[2]. أمّا السَّحرةُ؛ فأعلنوا ذلك بمحضرِ موسى وهارونَ عليهما السلام وقتَ إلقائه العصا وظهورِ الحقِّ لهم، فكان التَّعبيرُ بـ ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ تصريحًا ونصًّا بإعلان تركِهم فرعونَ وتحوُّلِهم إلى الإلهِ الحقِّ إلهِ موسى وهارونَ.

التَّعبيرُ عن إيمان بني إسرائيل بالماضي ﴿ءَامَنتُ﴾:

تأكيدُ إيمانِ فرعون بالإحالةِ على إيمانِ بني إسرائيل الرّاسخ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ جاء التَّعبيرُ عن إيمانِ بني إسرائيل بالفعل الماضي للدَّلالةِ على تحقُّق الإيمانِ ورسوخِه بهم، فأحالَ بذلك إلى تأكيدِ إيمانِه، وكونِ الإيمانِ بهذا الإلهِ سابقًا وراسخًا وليس بمُحدَثٍ وطارئ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/185.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/173، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/170 - 171.

تقديمُ شبهِ الجملةِ ﴿بِهِۦ﴾ على الفاعل:

المقصودُ بالحديث أولى بالتَّقديم

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قدَّم النَّظمُ الكريم شبهَ الجملةِ من الجارِّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ على الفاعل ﴿بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، فلم يقلْ على مقتضى الظّاهرِ: (آمنت بنو إسرائيل به)؛ للدَّلالةِ على أنَّ بني إسرائيل لا يؤمنون إلّا به، فإيمانُهم مختصٌّ به، وفي ذلك مزيدٌ من تأكيدٍ بكونِه يؤمن بالتَّوحيد، فقد أعلن أنَّه موحِّدٌ بالإحالة إلى توحيدِهم من خلال حصرِ إيمانِهم باللّه تعالى.

دلالةُ العطفِ بالواو لعبارة ادِّعاء فرعون بأنَّه مِنَ الْمُسْلِمِين:

تأكيدُ الإيمانِ بإعلان الاستسلامِ، بعد فوات الأوان

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ معطوفةٌ على الجملة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ءَامَنتُ﴾ تأكيدًا لمضمون الجملةِ الأولى، فلمّا أخبرَ عن إيمانِه؛ أتْبعه بكونِه من المسلمين تأكيدًا لتحقيق الإيمان بإجرائِه بأكثرَ من عبارة. "ولعدم علمِه بالصِّفات المختصَّةِ باللّه إلّا ما تضمَّنَتْهُ الصِّلةُ؛ إذ لم يتبصَّرْ في دعوةِ موسى تمامَ التبصُّر، ولذلك احتاجَ أن يزيدَ: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾؛ لأنَّه كان يسمعُ من موسى دعوتَه؛ لأنْ يكونَ مسلمًا؛ فنطَق بما كان يسمعُه"[1].

توكيدُ جملةِ الفاصلةِ بالجملة الاسميَّةِ:

ادِّعاءُ الرُّسوخِ والثَّباتِ على المعنى بالتَّعبير بالاسميَّة

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالجملة الاسميَّة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ الدّالَّةِ على الثُّبوت والدَّوام وتأكيدِ مضمونِها، وكان الظّاهرُ أن يقولَ: (وأسلمت له) عطفًا على قوله: ﴿ءَامَنتُ﴾؛ ولكنَّه عدَل إلى التَّعبير بالجملة الاسميَّة؛ لأنَّه أبلغُ في بيان إسلامِه وثبوتِ المعنى، وترسيخِ ادِّعائِه بالإيمان وكونِه من زمرة المسلمين، مع ما فيه من مراعاةِ الفواصل[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/276.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/555، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/173، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/171.

دلالة جمعِ لفظ ﴿ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ وتعريفِه:

الصِّفةُ ضِمْنَ جماعةٍ أقوى من صفةِ الفردِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالجمع والتَّعريفِ في: ﴿ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾، "وأراد بهم إمّا بني إسرائيلَ خاصةً، وإمّا الجنسَ، وهم داخلون فيه دخولًا أوَّليًّا"[1]، والتَّعبيرُ بالانتماء ضِمْن جماعةٍ معروفة بالوصف أبلغُ في الدَّلالة على امتثال الصِّفةِ من الاتِّصاف بها في صيغة الإفرادِ بأن يقولَ: (وأنا مسلمٌ)، لما له من دلالةِ الدخولِ مع الجمع المصطفَيْن الأخيار.

سرُّ تكرارِ ذكرِ إيمانِ فرعونَ بثلاثِ عباراتٍ متتاليات:

طولُ الكلامِ دليلُ الحرصِ على القبول ساعةَ العسرة رغم اليأس

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ كرَّر المعنى ذاتَه بأكثرَ من عبارة، وقد كانت واحدةٌ كافيةً في بيان الإيمان، ولكنَّه "لمّا لحِقه من الدَّهَشِ ما لحِقه؛ كرَّر المعنى بثلاثِ عباراتٍ، إمّا على سبيل التَّلعثم؛ إذ ذلك مقامٌ تَحارُ فيه القلوبُ، أو حرصًا على القبولِ، ولم يقبلِ اللهُ منه؛ إذ فاتَه وقتُ القبول، وهو حالةُ الاختيار وبقاءُ التَّكليف، والتَّوبةُ بعد المُعاينة لا تنفعُ"[2].

دلالةُ الإسلامِ في الآية على المعنى اللُّغويِّ دون الشَّرعي:

أعلنَ فِرعونُ الإسلامَ بقهرِ الظُّروف، لا بالاقتناعِ المألوف

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ دلَّ التَّعبيرُ بالإسلام هنا أنَّه من "الذين أسلموا نفوسَهم لله، أي: جعلوها سالمةً خاصَّةً له تعالى"[3]، فدلَّ على الانقياد للأمر والحكم، "فالإسلامُ هنا بالمعنى اللُّغوي، والإسلام الشَّرعيُّ مختصٌّ بما جاء به نبيُّنا ﷺ على ما هو المختارُ"[4].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/173.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/102، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/173.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/173.

(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/554.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(جاوزَ)، و(عبَر)، و(عدّى):

أصلُ العَبْرِ: تجاوزٌ من حالٍ إلى حالٍ، والعُبورُ يختصُّ بتجاوز الماء، إمّا بسباحةٍ، أو في سفينةٍ، أو على بعيرٍ، أو قنطرةٍ[1]. أمّا المجاوزةُ؛ فيُقال: جُزْتُ البلدَ، أي: تعدَّيتُه، فجاوز بمعنى: تجاوز[2]، جُزْتُ الطَّريقَ، وجازَ الموضعَ، وجاوَزه، وأجاز غيرَه، وجازَه: سارَ فيهِ، وسَلَكَهُ، وأجازَه: خَلَّفه، وقَطَعَهُ[3]. وأمّا العدْوُ؛ فيَدُلُّ عَلَى تَجاوُزٍ في الشَّيْءِ وتَقَدُّمٍ لِما يَنْبَغي أنْ يُقْتَصَرَ عَلَيْهِ[4]، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: 28] أي: لا تتجاوز[5]. فيُلاحظُ أنَّ العبورَ يكونُ سباحةً أو بآلةٍ، وأمّا التَّعدّي؛ فهو تجاوزٌ لما لا ينبغي، وأمّا المجاوزةُ؛ فهي تعدّي المكانِ والموضعِ، وهو الأنسبُ للآية.

العبورُ تجاوز الماءِ، والتَّعدّي مجاوزةُ الحدِّ، والمجاوزةُ عبورُ الموضِعِ

الإتْباع واللَّحاق:

الإتّباع: اقتفاءُ الأثر، يقال: تَبِعه وأتْبعَه؛ فتارةً يكون بالجسم نحو: تبِعتُه في الطريق وأتْبعتُه فيها، وتارةً بالامتثال، ولَحِقْتُهُ ولَحِقْتُ به: أدركتُه[6]، فهو إدراكُ الشَّيء شيئًا كان يَسبقه متَّصلًا بأثنائه[7]. فالإتّباعُ يأتي بمعنى الاقتفاءِ واللَّحاقِ بشيءٍ أو شخصٍ والسيرِ خلفَه. وهو الأنسبُ للسياق؛ إذ لم يدركْ فرعونُ بني إسرائيلَ، وإنَّما اقتفى أثرَهم.

الإتباع اقتفاء الأثرِ، واللَّحاق الإدراك لما سبق

الظُّلم والجَوْر والبَغي:

الجَوْر خلافُ الاسْتقامَة في الحكم، والظُّلمُ ضَرَرٌ لا يُسْتَحقُّ،

الظُّلمُ نقصانُ الحقِّ، والجَوْرُ ظلمٌ في الحكم، والبغيُ طلب ما ليس يَحقُّ

(1) الرّاغب، المفردات: (عبر).
(2) السّمين، العمدة: (جوز).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (جوز).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عدو).
(5) السّمين، العمدة: (عدو).
(6) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (تبع)، (لحق).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (لحق).

ولا يعقِبُ عِوضًا، وأصل الظُّلم نُقْصانُ الحقِّ، والجَوْرُ: العُدولُ عَن الحقِّ، وخُولف بَين النَّقيضيْن، فَقيل: في نقيضِ الظُّلم: الإنصافُ، وهوَ إعْطاءُ الحقِّ على التَّمام، وفي نقيض الجوْرِ: العدْلُ، وهوَ العُدولُ بِالفِعْلِ إلَى الحقِّ، وأمّا البَغيُ؛ فهو شدَّة الطَّلب لِما لَيْسَ بِحَقٍّ بالتَّغليب[1]. وفي الآية الكريمةِ عبَّر بالبغيِ؛ لأنَّه اشتدَّ في طلبهم بلا وجهِ حقٍّ لكونِه كان غالبًا عليهم.

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 231 - 232.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 20 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-17-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 20 : المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-17-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6073958 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»